فريد مراد

كنتُ على وَشكِ الرَّحيل

رواية

الأيّام الخمسة الأولى

1

في اليوم الأوّل، قلتُ: لا شيء يستوجب الاِهتمام ..
في اليوم الثَّاني، قلتُ: قد يكون السَّبب بسيطاً، لاداعي للقلق ..
في اليوم الثَّالث، وكانت الحالة تزدادُ سوءاً، قلتُ: عجيب! .. ما عساه أن يكون؟!
في اليوم الرَّابع، نظرتْ إليَّ زوجتي وقالت: أراكَ قلقاً، مرتبكاً، مُصفرّ الوجه، وكأنَّكَ لستَ على ما يُرام؟!
قلتُ: لا.. ليس هناك ما يُقلق، لا تشغلي بالكِ، أنا بخير .. مجرّد قليلٌ من النّزيف، اِطمئنّي أنا بخير .. أنا بخير.
في اليوم الخامس، بداية الرِّحلة القاسية، عندما أيقظتني زوجتي صباحاً لتقول: أنا خارجة لأتمشَّى قليلاً، لقد حجزتُ لك موعداً عند الطَّبيب، السَّاعة العاشرة تماماً. يجب أن تنهضَ إذا كنت تنوي الذّهاب. بكلِّ الأحوال ستدفع قيمة المعاينة، إن ذهبتَ، أو لم تذهبْ. وبقليلٍ من الغضب، أغلقتِ الباب، وخرجتْ. وذهبتُ .. وقرَّرَ الطَّبيب إرسالي لفحصِ "التَّنظير". خمسة أيّامٍ فقط، غيّرتْ مجرى حياتي.

الثَّلاثون من مارس من عام ألفين وخمسة عشر للميلاد، لم يكُنْ يوماً عادياً في حياتي، عندما خرجتُ من المستشفى مترنّحاً، وكان قد تمَّ فحص التّنظير. كانَ يوماً ممطراً وكئيباً. لم تكُنْ زخّاتُ المطرِ المتساقطة على صفحة وجهي الحزين، قد بلّلَتْ عينَيّ، فقبل خروجي من المستشفى كانتا مبلّلتَين دامعتَين. كانت الأشياء الّتي أنظر إليها من وراء الدُّموع، تبدو لي مختلفة جدّاً عمَّا كانت عليه قبل حين، وأقصد قبل دخولي إلى المستشفى، وإجراء فحص التَّنظير، كان كلُّ شيءٍ يتراءى لي باكياً حزيناً، والرُّؤية غير واضحة، كانت زوجتي تسير بجانبي، وكنّا نتقدّمُ ببطءٍ شديد نحوَ المكانِ الَّذي كنّا قد ركنَّا فيه سيَّارتنا.

كانت السَّاعةُ تشيرُ إلى الواحدة ظهراً عندما نظرتُ إليها وأنا أُكلِّم نفسي وأقول:

– الآن إبتدأت رحلةُ العذاب نحوَ النّهاية. أجل رحلة العذاب، وما أدراكِ يا نفسي، ما رحلة العذاب؟! رحلة العذاب تبدأ بشكل أُكذوبة .. يقولون لكَ، ليس هناك من خطورة، لقد تقدّمَ العلمُ كثيراً في هذا المجال، إنَّها مجرَّد حُبَيبات عنقوديّة صغيرة، سوف نستأصلُها وتُشفى .. وتمضي الأيّام وأنتَ تتعذَّبُ. ثمَّ يقولون، إكتشفنا بضعة حبيبات أخرى متفرّقة هنا وهناك، ولكن لا تخَفْ، سوف نقضي عليها بالأشعّة السِّينيّة. وتمضي الأيّام، وأنتَ تزداد ألماً، وعذابك

يتفاقم، ثمَّ يقولون، لقد اِنتشرَتْ هذه الحُبَيبات في جميع أنحاء الجسم عن طريق الغدد اللَّمفاويّة، ولكن لا تجزع، سنحاول القضاء عليها بالكيماوي. وتمضي الأيّام المريرة وأنتَ تعيش أسوأ العذابات وأشدَّها وأقساها. ثمَّ تسمعهم يقولون، نأسف .. لقد عملنا ما علينا. ثمَّ ينتهي كل شيء، وترحل، وتبقى الحياة بعدك مستمرّة، وكأنَّ شيئاً لم يكُنْ. هكذا تبدأ القصّة في أغلب الأحيان، وهكذا تنتهي، وكأنّها ديباجة مدبلجة إلى كافّة اللُّغات كاد يحفظها الجميع. أنا واثقٌ سيأتي يومٌ يصلُ فيه العلماء والباحثون إلى دواءٍ شافٍ، لهذا الدَّاء الخبيث، كما أوجدوه من قبل للطاعونِ، والكوليرا، والإنفلونزا الإسبانيّة، وغيرها من الأمراض الفتّاكة. مجرَّد ڤيروسات شرسة، لا تُرى بالعين المجرّدة، أودَتْ بحياةِ الملايين من البشر، ولكن إلى أن يأتي ذاك اليوم، لابدَّ من تضحيات وضحايا لتجاربهم هذه، ومن هم الضّحايا غيرنا نحن البشر؟! أجل نحن ضحايا هذه التّجارب .. أنا، وأمّي الَّتي رحلت قبل بضعة سنين بذات المرض اللَّعين، وصديقي، وقريبي، وربَّما الطَّبيب الَّذي أشرف على علاجي، والكاهن الَّذي صلَّى على (جثماني)، وملايين أخرى من النَّاس، ولكن في النّهاية سيتغلَّب الإنسان على هذا الحيوان الخطير الّذي يسمّونه "السَّرطان"، حتّى يظهر بغتةً حيوانٌ آخر أكثر منه فتكاً وخطورةً.